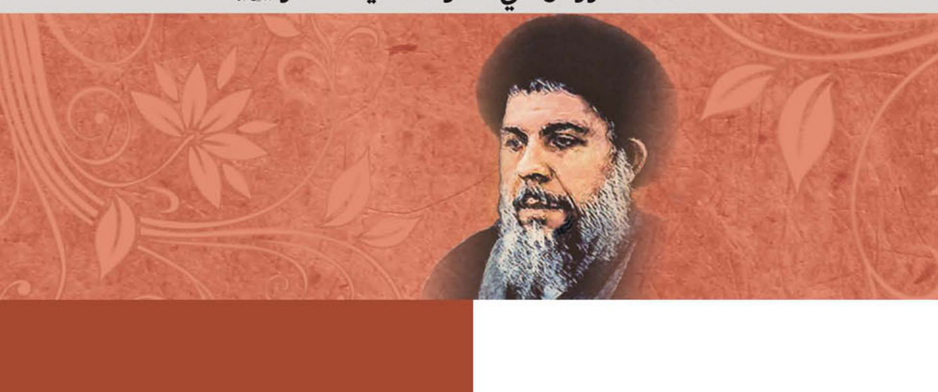


17

الإسلام
وبناء حضارة الإنسان المعاصر

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره







الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الإسلام وبناء حضارة الإنسان المعاصر

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: الإسلام وبناء حضارة الإنسان المعاصر
إعداد: مركز نون للتّأليف والترجمة
نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى: شباط 2011م/ 1432هـ

الإسلام وبناء حضارة الإنسان المعاصر

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمّد وآله الطّيبين الطاهرين.

لا ينظـر الفكـر الإسلامـيّ إلى تأسيس الدولـة الإسلاميّة وقيامهـا على أنّها مجرّد ضرورة شرعيّـة فحسب؛ بمعنى إقامة حكـم الله علـى الأرض وتجسيد لـدور الإنسان فـي خلافة الله تعالـى، بـل ينظر إليهـا ـ بالإضافة إلى ذلك ـ علـى أنّها ضرورة حضاريّـة أيضـاً؛ بمعنى أنّ الإسـلام يملك معطيَـات حضاريّة عظيمـة، وقـدرات هائلة يتميّـز بها عـن أيّ تجربـة اجتماعيّة أخـرى، بحيث يُشكّل المنهج الوحيد الّذي يُمكنه تفجير طاقات الإنسـان في العالَم الإسلاميّ المعاصر، والارتفاع به إلى مركزه الطبيعيّ على صعيد الحضارة الإنسانيّة، وإنقاذه ممّا يُعانيه من ألوان التشتُّت، والتبعيّة، والضياع، والتخلّف.

ولكـنّ **السـؤال الـذي يطرح نفسـه**: ما هي تلـك المميّزات والقـدرات الهائلـة الّتي انفـرد بها الإسـلام في بنـاء حضارة الإنسـان المعاصر، وتنميتها، وتطويرها عن أيّ تجربة سياسيّة،

أو اجتماعيّة، أو اقتصاديّة أخرى؟!

للإجابة على هذا السؤال، والتعرّف على الرؤية الإسلاميّة الّتي قدّمها الشهيّد الصدر قدس سره بقلمه الشريف ضمن هذا السياق، سوف نعرض هذا البحث القيّم.

وعلى ضوء ذلك قام مركز نون للتأليف والترجمة باختيار هذا البحث- الّذي بين يدي القارئ العزيز- من كلمات الشهيد الصدر قدس سره، حيث تمّ تهذيبه وتشذيبه من بعض المكرّرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة بغية المحافظة قدر الإمكان على عبارة الشهيد الصّدر قدس سره، هذا مع إضافة بعض العناوين للفقرات والمواضيع، وإعادة ترتيب بعضها.

ولذا يُعدّ هذا البحث تلخيصاً لدراسة الشهيّد الصدر قدس سره الّذي قدّم فيه رؤيته حول منابع القوّة والقدرة الّتي تفرّد بها الإسلام في بناء حضارة الإنسان على مرِّ التأريخ، ولا سيّما في ظلِّ متطلّبات العصر الحديث ومتغيّراته، وقد نُشرت هذه الدراسة ضمن كتاب (الإسلام يقود الحياة)، وهو من منشورات دار التعارف، بيروت- لبنان، طبع في العام ١٤٢٤هـ..

مركز نون للتأليف والترجمة

الأهداف

١ . التعـرّف إلـى منابـع القـدرة والقـوّة فـي الإسلام.

٢ . التعـرُّف إلى دور الإسـلام وقدراته الهائلة والفريـدة فـي بنـاء حضـارة الإنسـان سـيّما في عصرنا الحديث.

٣ . التعـرُّف إلى العناصـر الإسـلاميّة القادرة علـى الاسـتنهاض والتجديـد والتغييـر فـي حيـاة الأمة الإسـلاميّة، والخروج بهـا من حالة التخلُّف، والضياع، والتبعيّة، والاستغلال.

٤ . التعـرُّف إلـى المرتكزات التأريخيّـة، والفكريّـة، والفلسـفيّة فـي النظـرة إلـى الحياة بين الإسلام والغرب.

منابع القدرة والقوّة في حضارة الإسلام:

للوقوف على حقيقة المميّزات والقدرات الهائلة الّتي يتمتّع بها الإسلام العظيم، سوف نستعرض ذلك من خلال مبحثين:

الأوّل: التركيب العقائديّ للدولة الإسلاميّة.

الثاني: التركيب العقائديّ والنفسيّ للفرد المسلم المعاصر.

المبحث الأوّل ـ التركيب العقائديّ للدولة الإسلاميّة:

إنّ كلّ مسيرة واعية لها هدف، وإنّ كلّ حركة حضاريّة لها غاية تتّجه نحو تحقيقها، بالتّالي كلّ من المسيرة والحركة الهادفتين يستمدّان وقودهما، وزخمهما، واندفاعهما من الهدف الّذي يسيران نحوه، ويتحرّكان إلى تحقيقه. ولكن قد تتحوّل هذه الحركة أو المسيرة إلى سكون وتوقّف حينما

يُستنفد الهدف، فعلى سبيل المثال: عندما يقوم فرد ما بالسعي الجدّي في سبيل الحصول على درجة علميّة وشهادة معيّنة ـ كهدف ـ فإنّنا نُلاحظ أنّ الجذوة تظلّ متّقدة في نفسه وتدفعه باستمرار نحو تحقيق الهدف الّذي يسعى للحصول عليه، حتّى إذا أنجز ذلك انطفأت الجذوة، وانتهى التحرُّك، وفقد أيّ مبرّر للبقاء ما لم يبرز هدف جديد. والشيء نفسه يصدق على المجتمعات؛ فإنّها كلّما تبنّت في تحرُّكها الحضاريّ هدفاً أكبر استطاعت أن تواصل السير، وتعيش جذوة الهدف شوطاً أطول، وكلّما كان الهدف محدوداً كانت الحركة محدودة، واستنفد التطوّر والإبداع قدرته على الاستمرار بعد تحقّق الهدف المحدود.

ومن هنا واجهت الفلسفة الماركسيّة القائمة على أساس (المادّيّة التأريخيّة)، مشكلة فيما يتّصل بتصوّراتها الفلسفيّة عن مسار التطوّر البشريّ التأريخيّ وفقاً لقوانين الجدليّة الديالكتيكية، وهي ـ أي المشكلة ـ أنّ الهدف اللاواعي الّذي تفترضه الماركسيّة لحركة التأريخ ومسيرة

الإنسان هو إزالة العوائق الاجتماعيّة عن نمو القوى المنتجة ووسائل الإنتاج، وذلك بالقضاء على الملكيّة الخاصة وإقامة المجتمـع الشيوعيّ، فإذا كان هذا هو هدف المسيرة، فهذا يعنـي أنّهـا ستتوقّـف، وأنّ تطوّر وإبـداع الطاقـة الإنسانيّة سيجمـد في اللحظـة الّتي يقوم فيهـا المجتمـع الشيوعيّ، بالنتيجة تتوقّف حركة التأريخ البشريّ ومسيرته ككلّ.

والحقيقـة أنّ الهـدف الوحيـد الّـذي يضمـن للتحـرُّك الحضاريّ للإنسان أن يواصل سيره، وجذوته باستمرار، هو الهـدف الّذي يقترب منه الإنسان باستمـرار، ويكتشف فيه كلّمـا اقترب منه آفاقاً جديدة وامتدادات غير منظورة تزيد الجذوة اتقاداً، والحركة نشاطاً، والتطوّر إبداعاً.

وهنا يأتي دور الدولة الإسلاميّة لتضع الله عزّ وجلّ هدفاً للمسيرة الإنسانيّة الصالحة، وتطرح صفات الله وأخلاقه كمعالِم لهذا الهدف الكبير. وبالتّالي كلّما اقتربت المسيرة الإنسانيّة وحركتها خطوة نحو هذا الهدف، وحقّقت شيئاً منه انفتحت أمامها آفاق أرحب، وازدادت عزيمة لمواصلة

الطريق؛ لأن الإنسان المحدود لا يُمكن أن يصل إلى هدفه المطلق، ولكنّه كلّما توغّل في الطريق إليه اهتدى إلى جديد، وامتدّ به السبيل سعياً نحو المزيد، وهو القائل سبحانه في محكم كتابه: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾**[1]، **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾**[2].

بالنتيجة: فإنّ التركيب العقائديّ للدولة الإسلاميّة الّذي يقوم على أساس الإيمان بالله وصفاته، ويجعل من الله هدفاً للمسيرة وغاية للتحرّك الحضاريّ الصالح على الأرض، هو التركيب العقائديّ الوحيد الّذي يمدُّ الحركة الحضاريّة للإنسان بوقود وقوّة لا ينفدان أبداً.

هذا، وبعد أن تعرّفنا على التركيبة العقائديّة للدولة الإسلاميّة وهدفها السامي والحقيقي وهو الله تبارك وتعالى، لا بُدّ أن نتطرّق إلى نقطتين مهمّتين. ضمن هذا

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

السياق العقائـديّ - نبيّن فيهما الجانب الأخلاقيّ وآثاره من جهة، والجانب السياسيّ ومدلولاته من جهة أخرى.

١ . أخلاقيّة التركيب العقائديّ للدولة:

إنّ إقامـة الحقّ والعـدل وتحمُّل مشاهـد البناء الصالح بحاجة إلـى دوافع تنبع من الشعـور بالمسؤوليّة والإحساس بالواجـب، وهـذه الدوافع تواجـه - دائماً - عقبـة تحول دون تكوّنهـا أو نموهـا، وهذه العقبة هي الانشـداد إلى (الدنيا) وزينتها والتعلُّق بها مهما كان شكلها.

فـإنّ هذا الانشـداد والتعلُّق يُجمّد الإنسـان في كثير من الأحيـان، ويوقف مساهمتـه في عمليّة البنـاء الصالح؛ لأنّ المساهمـة فـي كلّ بناء كبيـر تعني كثيراً من ألـوان الجهد والعطـاء، وأشكالاً من التضحيـة والأذى في سبيل الواجب، وتحمّلاً شجاعاً للحرمان من أجل سعادة الجماعة البشريّة ورخائها، وليس بإمكان الإنسان المشدود إلى زخارف الدنيا والمتعلّـق بملذّاتها، أن يتنازل عـن هذه الطيّبات الرخيصة ويخـرج من نطاق همومه اليوميّة الصغيرة إلى هموم البناء

الكبيرة. وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال: «**من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء**»[1]. بالتّالي فإنّ هذا الأمر يترتّب عليه انحراف الإنسان، وتخلّيه عن دور الخلافة الرشيدة على الأرض، وارتكاب الأخطاء والمعاصي؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة**»[2].

لذا كي تُجنّد طاقات كلّ فرد للبناء الكبير، لا بُدّ من تركيب عقائديّ له أخلاقيّة خاصة تُربّي الفرد على أن يكون سيّداً للدنيا لا عبداً لها، ومالكاً للطيّبات لا مملوكاً لها، ومتطلّعاً إلى حياة أوسع وأغنى من حياة الدنيا الزائلة، ومؤمناً بأنّ التضحية بأيّ شيء على الأرض هي تحضير وتمهيد بالنسبة إلى تلك الحياة الأخرويّة الدائمة، الّتي أعدّها الله تعالى للمتّقين من عباده.

وهذا التركيب العقائديّ- الأخلاقيّ قد حدّد معالمه العامّة

(١) النراقي، جامع السعادات، ج٢، ص٢٦.

(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص٣١٥، ح٨.

الإسلام العظيم من خلال القرآن والسنّة، وذلك من أجل أن ينتزع من الفرد المسلم تعلّقه الشديد بالدنيا وملذّتها، فأعطى للدنيا حجمها الطبيعيّ؛ أي أنّ الدنيا حينما تُتّخذ كهدف فهي تتعارض مع الآخرة وتتحوّل من دار للتربية إلى أرض للّهو والفساد. قال تعالى: **﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾**[1].

وأمّا حينما تتّخذ الدنيا طريقاً للآخرة؛ أي أداة يُنمّي الإنسان في إطار خيراتها وجوده الحقيقيّ، وعلاقته بالله، وسعيه المستمرّ نحو المطلق في عمليّة البناء، والإبداع، والتجديد، فإنّ الدنيا تتحوّل - في هذه النظرة - من كونها مسرحاً للتنافس والتكالب على المال إلى مسرح للبناء الصالح والإبداع المستمرّ **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾**[2].

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

بالنتيجة: إنّ كلّ إنسان يؤمن بالنظرة الإسلاميّة إلى الدنيا، لا بُدّ أن يُجسّدها في سلوكه، وذلك من خلال ما يأخذه من الدنيا ويستمتع بحلالها وطيّباتها بقدر حاجته؛ لأنّ الدنيا وضعت في الأساس لسدّ الحاجة لا للاكتناز والتكاثر، وما دامت لا تُشكّل للإنسان هدفه، وإنّما تُجدّد قدرته باستمرار على مواصلة الكدح في طريقه إلى ربّه وتحقيق هدفه، فمن الطبيعيّ أن يأخذ الإنسان منها حاجته ويوظّف الباقي للهدف الكبير؛ لأنّه إذا احتكر لنفسه أكثر من حاجته تحوّلت الدنيا بالنسبة إليه إلى هدف، وخسر بذلك دوره الصالح على الأرض وانحرف عن أهداف المسيرة الإسلاميّة الرشيدة، ووقع تحت ألوان الاستغلال، والظلم، والطغيان، ولهذا قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر**»[1].

وبهذا البناء الصالح للمواطن في الدولة الإسلاميّة يستطيع الإنسان أن يتحرّر من مفردات الدنيا، ويرتفع عن

(١) النراقي، جامع السعادات، ج٢، ص٢٧.

الهمـوم الصغيرة الّتـي تفصله عن الله تعالـى، ويعيش من أجل الهموم الكبيرة، وبذلك يواجه أعظم مسؤوليّات البناء بصدر رحب، وقلب مطمئن، ونفس قويّة، ومعادلة حسابيّة رابحـة، لا موضع فيها للخسارة بحـال من الأحـوال، قال تعالـى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

٢. المدلولات السياسيّة لتركيب الدولة الإسلاميّة العقائديّة:

تقوم المدلولات السياسيّة في التركيب العقائديّ للدولة الإسلاميّـة بأدوار عظيمة فـي تنمية كلّ الطاقـات الخيّرة لدى الإنسـان وتوظيفها لخدمـة الإنسانيّة كلّهـا، فمن تلك المدلولات ما يلي:

أ. استئصـال الدولـة الإسلاميّـة كلّ علاقات الاستغلال الّتي تسود المجتمعات الجاهليّة، وتحرير الإنسان من

(١) سورة الصف، الآيتان: ١٠- ١١.

استغـلال أخيه الإنسان فـي كلّ المجالات والنواحي، الأمر الّذي يوفّر للمجتمع طاقتين للبنـاء، هما:

- **الأولـى:** طاقة الإنسان المستغَـل الّذي تمّ تحريره؛ لأنّ طاقتـه كانـت تُهـدر لحسـاب المصالـح الشخصيّة للآخرين، أمّا بعـد تحريرها فهي تُصبح طاقة بنّاءة لخير الجماعة البشريّة ككلّ.
- **الثانية:** طاقة الإنسان المستغِل الّذي كان يُبدّد إمكاناته فـي تشديد قبضتـه علـى مستغَلّيه، بينمـا تعود هذه الامكانات بعد التحرير إلى وضعها الطبيعيّ، وتتحوّل إلى امكانات بناء وعمل.

ومن هنا نعرف كـم من قابليّات وإمكانات تذوب في ظلّ حكـم الطاغوت فـي إطار علاقـات الاستغـلال، أو يُمارس الظالمـون تذوبيها ومحاصرتها، بينما تجـد لها في المناخ الحـرّ الرشيد الّذي تخلقـه الدولة الإسلاميّـة القدرة على النمـو والامتـداد. وقـد شهـد تأريـخ الإسلام علـى نماذج عـدّة مـن الشخصيّـات الّتي كانت عبيـداً أو أشبـاه العبيد

فـي مجتمعـات الجاهليّة، وإذ بهـا تتحوّل في ظـلّ الرعاية الإسلاميّــة الكريمة والمنصفة إلى قــادة كفوؤة ومبدعة في مختلف مجـالات الحياة الفكريّــة، والسياسيّة، والعسكريّة؛ وذلــك لأنّ الصالح للفرد في الدولة الإسلاميّة لا يُحدّده أيّ اعتبــار (عرقيّ- نسبيّ- مركزيّ- ماليّ... ألخ) سوى قدرات الفرد وقابليّاته الخاصة.

ب- ومــن المدلولات السياسيّة للدولة الإسلاميّة، الوضع الواقعــيّ والفعليّ الّذي يعيشه الحاكم والحاكمون في الدولة الإسلاميّة، فإنّهم يعيشون مواطنين اعتياديّين في حياتهم الخاصة، وسلوكهم مع الناس، ومساكنهم الّتي يسكنونها، وعلاقاتهم مع الآخرين.

بينمــا الوضــع القانونــيّ- الوضعــيّ لا يعكــس ولا يُحقّق القــدوة الصالحــة فــي واقــع الحيــاة العمليّة، بل هــو لعبة تشريعيّة يُمارسها الطغاة والظلمة من خلال صياغة دساتير لشعوبهــم مملوءة بمفاهيــم المساواة والعــدل بين الحاكم والمحكوميــن، ولكنّها تظـلّ في واقع الحيــاة العمليّة مجرّد

ألفــاظ لا عطاء فيها ولا بناء، وليس لها مــن دور إلا التستّر علــى واقع التناقضـ بين حياة الحاكم وحيــاة المحكومين، وامتيازات الحاكم وهوان المحكومين.

أمّا فــي الدولة الإسلاميّة فتلــك المفاهيم لا تُطرح على مستــوى نقوشــ جميلة في لوحــة الدستور، بــل على مستوى تطبيق عملــيّ وممارسة فعليّة في واقــع الحياة. وقد شهدت التجربة الإسلاميّة بتأريخها الماضي والمعاصر على ذلك، ففي تأريخ التجربة الماضية وقــف رئيس الدولة الإسلاميّة أميــر المؤمنيــن عليّ عليه السلام بيــن يدي القاضــي مع مواطن اعتيــاديّ شــكاه إلــى القاضــي، فأحضرهمــا القاضي لكي يقضــي بينهما. وأليس هو القائل عليه السلام: «**أأقنع من نفســي بــأن يُقال أمير المؤمنين، ولا أُشــاركهم في مكاره الدهر، وأن أكون أسوة لهم في جشوبة العيش**»[1]؟!

وإذا تجاوزنا تأريخ التجربة إلى واقعها المعاصر، وجدنا أنّ ذلك العلويّ العظيم الإمام الخمينــي قدس سره الّذي قاد كفاح

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٧٣.

شعبـه تحت راية الإسـلام حتّى نصـره الله، وسقطت على يـده امبراطوريّة الشاه بكلّ خزائنهـا، ورجع إلى بلده رجوع الفاتحيـن، لم يؤثر على بيته القديم بيتاً، بل عاد إلى البيت نفسه الّذي نفاه منه الجبّارون من قبل عشرين عاماً تقريباً، ليُقـدِّم الدليـل علـى أنّ الإمام عليّ عليه السلام لـم يكن شخصاً معيّناً وقد انتهى، وإنّما هو خطُّ الإسلام الّذي لا ينتهي.

هكـذا جسّدت الدولة الإسلاميّة المثـل الأعلى للمساواة بين الحاكمين والمحكومين في القضاء والعدل، كما جسّدت في حياة الحاكم الخاصة القدوة الحقيقيّة والسلوة الروحيّة لـكلّ المستضعفين في الأرض؛ لأنّ الحاكم كان يعيش كأيّ مواطن اعتياديّ لا يتميّز عليهم بقصور عالية، ولا بسيّارات فارهـة، ولا ببذخ في الموائد والأثـاث، ولا بألوان التفنُّن في اقتناء التحف والمجوهرات.

ج ـ ومـن المدلولات السياسيّة ـ أيضـاً ـ للدولة الإسلاميّة تعاملهـا على الساحـة الدوليّة؛ فإنّهـا تتعامل لا على أساس الاستغـلال وامتصاص الشعوب الضعيفة كما

تصنع الحضارة الغربيّة، ولا على أساس المصالح المتبادلة كما تدّعي هذه الحضارة أيضاً، بل على أساس الحقّ، والعدل، ونصرة المستضعفين على الأرض. قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

ولا شكّ في أنّ تعامل الدولة الإسلاميّة على الساحة الدوليّة بهذه الروح يؤدّي عالميّاً إلى إيقاظ الضمير الإنسانيّ وتوعيته على مفاهيم العدل والحقّ، وتحريكه للمساهمة في ذلك.

المبحث الثاني ـ التركيب العقائديّ والنفسيّ للفرد المسلم المعاصر:

إنّ أيّ نظام اجتماعيّ لا يُمارس دوره في فراغ، وإنّما في كائنات بشريّة وعلاقات قائمة بينهم، وهو من هذه الناحية

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

تتحـــدّد درجة نجاحه وقدرته علـــى تعبئة إمكانات المجتمع، وتفجير الطاقــات الصالحة في أفراده تبعاً لمدى انسجامه إيجابــاً أو سلبــاً مــع التركيــب النفســيّ والتأريخــيّ لهؤلاء الأفراد.

ولا نقصد بذلك أنّ النظام الاجتماعيّ والإطار الحضاريّ للمجتمع يجب أن يُجسّد التركيب النفسيّ والتأريخيّ لأفراد المجتمع، ويحوّل نفس ما لديهم من أفكار ومشاعر إلى صيغ منظّمــة، فــإنّ هذا لا يُمكــن أن يكون صحيحــاً بالنسبة إلى مجتمعات العالَم الإسلاميّ الّتي تشكو من أعراض التخلُّف، والتمــزُّق، والضياع، وتُعاني من ألــوان الضعف النفسيّ؛ لأنّ تجسيــدَ هذا الواقــع النفسيّ المهــزوم ليســ إلا تكريساً له واستمراراً في طريق الضياع والتبعيّة.

وإنّمــا الّذي نقصده هو بنــاء حضــاريّ جديد لمجتمعات التخلُّــف هذه لا بُدّ أن يمرّ من خلال اختيــار الإطار السليم الّذي يأخذ في الحسبان مشاعر الأمّة، ونفسيّتها، وتركيبها العقائــديّ والتأريخيّ؛ وذلك لأنّ حاجــة التنمية الحضاريّة

إلـى منهج اجتماعيّ وإطار سياسيّ، ليست مجرّد حاجة إلى إطـار من أطر التنظيم الاجتماعيّ، ولا يكفي لسلامة البناء أن يدرس الإطار ويختـار بصورة تجريديّـة ومنفصلة عن الواقـع، بل لا يُمكن لعمليّة البناء أن تُحقّق هدفها في تطوير الأمّة واستنفار كلّ قواها ضدّ التخلّف إلّا إذا اكتسبت إطاراً يستطيـع أن يدمـج الأمّة ضمنـه حقّاً، وقامت علـى أساس يتفاعل معها، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**(١).

إذاً، لكي تكتمل لنا معالِم الصورة والرؤية الإسلاميّة في اختيـار المنهج والإطار العام لبنـاء الأمّة واستئصال جذور التخلّف منها، يجب أن نُدرك الحقيقة والأساس الّذي تنطلق منه، وهـي حقيقة البدء بالتغيير الداخلـيّ للفرد والمجتمع معاً، وعلى ضوئها يكون لدينا مركّب حضاريّ عقائديّ قادر علـى تحريك الأمّة وتعبئة كلّ قواهـا وطاقاتها للمعركة ضدّ التخلّف، والتبعيّة، والاستغلال.

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

ومن يستطيـع القيام بوظيفة التغييـر الداخليّ وتقديمه للإنسـان اليوم، هي الدولة الّتي تقوم علـى أساس إسلاميّ بحيـث تُشـكّل منه المنطلق نحـو بناء إطارهـا الاجتماعيّ، ومنهجها العمليّ، وتفعيل عناصر القدرة التغييريّة فيها.

العناصر الإسلاميّة القادرة على التغيير والتجديد:

يمتلـك الإسـلام عناصر قـوّة تُبرهن على مـدى قدرته التغييريّـة والتحـرُّك نحـو البناء الهائـل للحضـارة للفرد والمجتمع معاً في عالمنا اليوم، وهي كالتّالي:

١ ـ الإيمان بالإسلام:

لا شكّ فـي أنّ إنسان العالَم الإسلاميّ ـ المعاصر ـ يؤمن بالإسـلام بوصفـه دينـاً ورسالة من الله تعالـى أنزلها على خاتم أنبيائـه ﷺ، ووعد من اتّبعها وأخلص لها بالجنّة، وتوعّد المتمرّدين عليها بالنار.

ولكن هذا الإيمان يعيش في الجزء الأعظم من المسلمين عقيـدة باهتة، حيث فقدت عبر عصور الانحراف كثيراً من اتقادهـا وشعلتهـا، وبخاصة بعد أن دخـل العالَم الإسلاميّ

عصر الاستعمار، وعمل المستعمرون من أجل تذويب هذه العقيدة وتفريغها من محتواها الثوريّ الرشيد.

ولذا لم يعد المسلمون يعكسون صورة الأمّة الإسلاميّة الّتي جعلها الله تعالى أمّة وسطاً كما قال في محكم كتابه العزيز: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ...﴾[1]؛ لأنّ المسؤوليّة (الخارجيّة) للأمّة الإسلاميّة أن تقوم بالشهادة على العالَم كلّه بحكم كونها أمّة وسطاً وشهيدة عليه، وما لم تتحمّل الأمّة هذه المسؤوليّة فلا معنى صحيح لوجودها.

وأيضاً لم يعد المسلمون يُمثّلون خير أمّة أُخرجت للنّاس كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[2]؛ لأنّ الأمّة الإسلاميّة ليست مجرّد تجميع عدديّ للمسلمين، وإنّما تعني تحمّل هذا العدد لمسؤوليّته (الداخليّة) على الأرض من

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

خلال عمليّة البناء الحقيقيّ المتمثّل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر، بعدهـا يتحقّق الإيمـان الحقيقيّ بالله تعالى ويتّقد شعلة في القلب لتشعّ على الآخرين، وإن لم تعد الأمّة الإسلاميّة كذلك فلا معنى لوجودها.

ولكـن بالرغـم مـن تلـك العقيـدة الإسلاميّـة الباهتة، والّتـي تُعاني منها الأمّـة اليوم، إلّا أنّها تبقـى حقيقة تُشكّل عامـلاً سلبيّاً في وجه أيّ إطار حضاريّ، أو نظام، أو مذهب اجتماعـيّ لا ينبثق فكريّاً وإيديولوجيّاً من الإسلام؛ لأنّ هذه العقيدة الإسلاميّة تؤمن-ولو نظريّاً على الأقل- بأنّ كلّ إطار، أو نظـام، أو مذهب لا يستمدّ قواعـده من الإسلام فهو غير مشروع، وإن لم يُترجم ذلك الإيمان عمليّاً على الأرض.

وهـذه الحقيقـة يُمكـن أن نلحظها حينما تنجـح إحدى تلـك الأنظمـة أو المذاهـب الوضعيّـة فـي تسلُّـم السلطـة وقيـادة المجتمـع، ولكنّها سرعان ما تجـد نفسها بعد فترة قليلة مرغمة علـى ممارسة ألوان من الإكراه، إذ يُدرك هذا النظام عجزه عن تجميع قوى الأمّة تحت لوائه ما لم يُمارس

الإكـراه، وكلّمـا زاد ممارسـة الإكراه قابلـه المزيد من ردّة الفعل الجماهيريّ المقاوم لقبول شرعيّته ووجوده.

بينمـا يختلف الموقـف اختلافـاً أساسيّـاً حينما يواجه النّاس أطروحة الدولة الإسلاميّة، والّتي تحمل الأمّة مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك استناداً إلى مبدأ الإيمان بـالله إيماناً حيّاً مسؤولاً، إذ سرعان ما تتحوّل تلك العقيدة الباهتة من عامل سلبيّ إلى عامل إيجابيّ في عمليّة البنـاء الحضـاريّ الجديـد؛ لأنّ النّاس يجـدون حينئذ في أطروحة الإسلام تجسيداً عمليّاً لعقيدتهم، ولئن كان الكثير مـن هؤلاء ليسـوا على استعداد للتضحيـة وتحمّل الأذى في سبيـل هذا التجسيد، فإنّهم عنـد تحقّقه يجدون فيه أملهم الكبير، وعقيدتهم المقدّسـة، وطموحهم الدينيّ، فسرعان مـا يلتحمون معه التحاماً روحيّاً كامـلاً، وسرعان ما تتحوّل تلك العقيدة الباهتة إلى عقيدة مشعّة، ممتلئة حيويّة وحركة ونشاطـاً، وهكذا تُجنّد طاقات الأمّة في عملية البناء الكبير بدون إكراه بل بروح الإيمان والإخلاص.

وتكفي بعض الأمثلة الصغيرة لتوضيح أبعاد هذا التحوّل المرتقَب، فالإسلام في ظلّ العقيدة الباهتة أثبت قدرته مرّات عديدة على أن يجمع بطريقة عفويّة وباسم الجهاد أعداداً هائلة من المقاتلين، والّذين يلبّون الدعوة استجابة لعقيدتهم الدينيّة، بينما نرى أنّ الدولة الاعتياديّة لا تستطيع أن تجمع هذه الأعداد لأيّ معركة إلا باستعمال أقسى أساليب الضبط والسيطرة، فما ظنّكم بهذا الإسلام إذا امتلك القيادة الاجتماعيّة في الأمّة، وما هو التحوّل العظيم الّذي يُنجزه في مجال تعبئة الطاقات القتاليّة للأمّة!

إذاً مع قيام الدولة الإسلاميّة يوضع حدٌّ لمأساة الانشطار والتجزئة في كيان الفرد المسلم الّذي يفرض عليه ولاءات متعارضة في حياته، فإنّ المسلم الّذي يعيش في ظلّ أنظمة تتعارض مع الإسلام يجد نفسه في كثير من الأحيان مضطّراً إلى ممارسة التناقض في حياته باستمرار، إذ يرفض ـ مثلاً ـ في المسجد وبين يدي الله ما يُمارسه في المتجر، أو المعهد، أو المكتب، وتستمرّ به هذه الحالة من

دوّامــة التناقض والولاءات المتعارضة، فلا يجد لها حلّاً إلّا بالتنازل عن المسجد لصالح ما يُمارسه في الحياة العامّة، فيُقاسي فراغاً روحيّاً يُهدّد المجتمع بالانهيار، وبهذا يتحوّل إلــى طاقــة سلبيّة ويفقــد المجتمع بالتدريج قــدرات أطهر أبنائه، وأنظف أفراده.

ولكن فــي ظلّ الدولة الإسلاميّة الّتــي تتّحد فيها الأرض مــع السمــاء، والمسجد مــع المكتب، فلن يكــون الدعاء في المسجد تهرُّباً من الواقع بل تطلُّعاً إلى المستقبل، ولن تكون ممارســة الحياة اليوميّة الواقعيّــة منفصلة عن المسجد بل مستمــدّة من روحه وعبقه، فسوف تعود إلى الإنسان وحدته الحقيقيّــة وانسجامــه الكامل الّذي سيتجلّــى في الإخلاص والصبر على متاعب الطريق (طريق ذات الشوكة).

٢ ـ المثل العليا في الإسلام:

إنّ أهــمّ عامل يدفع الإنسان إلى البــذل والعطاء للدعوة إلــى بناء جديــد، هو أن تُقدّم لــه هذه الدعوة مثــالاً واقعيّاً واضحاً للبناء الّذي تدعوه إلى المساهمة في تشييده.

ومن هنا فإنّ الدعوات الّتي تستورد مثلها العليا من تجارب غير إسلاميّة، تواجه صعوبة كبيرة في إعطاء رؤية واضحة للفرد المسلم عن مثلها الأعلى الّذي تحتذي به وتدعو إلى تجسيده بين المسلمين؛ لأنّه غريب عنهم لا يملكون عنه إلا رؤى باهتة ومتهافتة. فالديمقراطيّة، والاشتراكيّة، والمادّيّة، والشيوعيّة وما إلى ذلك من المذاهب والاتّجاهات الاجتماعيّة، مارسها الإنسان خارج العالَم الإسلاميّ وتجسّدت في أشكال مختلفة، واتّخذت صيغاً متفاوتة، ولهذا فهي لا توحي إلى الفرد المسلم بصورة محدّدة واضحة المعالِم، بل إنّه يجد أشدّ الحكومات تعسّفاً ودكتاتوريّة تحمل كلمة الديمقراطيّة كجزء من اسم الدولة، ويجد أشدّ الحكومات دوراناً في الفلك الاشتراكي تُعاني من تمييزات لا حدّ لها، ويجد المثل الأعلى لأمّة من الناس يتهاوى بعد ذلك، ويكفر به أولئك النّاس أنفسهم، ومثال ذلك ما حدث مع (ستالين) [1] الّذي ألّهه شعبه، وإذا به

(١) الرئيس الأسبق للاتحاد السوفياتي الشيوعي (سابقاً).

يُطرد من الجنّة بعد موته، وتُنتزع منه أوسمة المجد.

وعلى العكس من ذلك الدولة الإسلاميّة، فإنّها تُقدّم للفرد المسلم مثالاً واضحاً وضوح الشمس، قريباً من نفسه، مندمجاً مع أعمق مشاعره وعواطفه، مستمدّاً من أشرف مراحل تأريخه، وأنقاها، وأعظمها تألُّقاً وإشعاعاً. وأيّ مسلم لا يملك صورة واضحة عن الحكم الإسلاميّ في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي خلافة الإمام عليّ عليه السلام، وفي معظم الفترة الممتدّة بينهما؟ وأيّ مسلم لا تهزُّه أمجاد تلك الصورة وروعتها؟ وأيّ مسلم لا يشعر بالزهو والاعتزاز إذا أحسّ بعمق أنّه يُعيد إلى الدنيا من جديد أيّام محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام؟

هذا المثال الإسلاميّ الواضح وضوح الشمس، يجعل من الفرد المسلم في إطار التعبئة الحضاريّة الإسلاميّة، وعمليّة البناء الكبير مطمئنّاً إلى طريقه، واثقاً بهدفه، وقادراً في الوقت نفسه على تمييز سلامة المسيرة أو الإحساس بانحرافها؛ لأنّ المثل الأعلى ما دام واضحاً لديه فهو يملك

المقياس الموضوعيّ الّذي يحكم على أساسه باستقامة المسيرة أو انحرافها.

٣ . نظافة المنهج الإسلاميّ وعدم ارتباطه بالمستعمرين:

إنّ الأمّة في العالَم الإسلاميّ عانت من الاستعمار ألواناً من الغدر والمكر، والالتفاف منذ وطأ الغرب أرضنا الطاهرة بأسلحته، وأفكاره، ومناهجه، وبلورت لديها - أي الأمّة الإسلاميّة - هذه المعاناة المريرة شعوراً نفسيّاً خاصّاً تعيشه تجاه الاستعمار، يتّسم بالشكّ والاتّهام ويخلق نوعاً من الانكماش لدى الأمّة عن المعطيات التنظيميّة للإنسان الأوروبي، بل وشيئاً من القلق تجاه الأنظمة المستمدّة من الأوضاع الاجتماعيّة في بلاد المستعمرين، وعدم الاقتناع بقدرتها على تفجير طاقات الأمّة وقيادتها في معركة البناء، حتّى لو كانت تلك الأنظمة مستقلّة عن الاستعمار من الناحية السياسيّة.

وقد عاش العالَم الإسلاميّ نموذجاً حقيقيّاً من تلك

الأنظمـة الحاكمـة الّتـي اتّخذت مـن القوميّـات المختلفة لشعـوب العالَـم الإسلامـيّ، فلسفـة، وقاعـدة للحضـارة، والتنظيم الاجتماعيّ، وقدّمت شعـارات ثوريّة منفصلة عن الكيان الفكريّ للاستعمـار انفصالاً كاملاً، غير أنّ القوميّة ليست إلا رابطة تأريخيّة ولغويّة، وليست فلسفة ذات مبادئ، ولا عقيدة ذات أسس، بل حياديّة بطبيعتها تجاه الفلسفات، والمذاهب الاجتماعيّة، والعقائديّة، والدينيّة.

ومن هنا كان لا بُدّ للأمّة الإسلاميّة إذن. بحكم ظروفها النفسيّـة الّتي خلقهـا عصر الاستعمـار وانكماشها تجاه ما يتّصل به من أنظمة حاكمة في العالَم الإسلاميّ وغيرها . أن تُقيّم نهضتها الحديثـة على أساس نظام اجتماعيّ، ومعالِم حضاريّة لا تمتّ إلى بلاد المستعمرين بنسب أو تبعيّة.

وعلى ضـوء ذلك برز لنـا منهج إسلامـيّ يتمتّع بنظافة مطلقة مقارنة مع المناهج الأوروبيّـة والغربيّة الاستعماريّة بألوانهـا وأطرهـا المختلفة، فالمنهـج الإسلاميّ. في ذهن الأمّـة. لـم يرتبـط بالاستعمـار أو بتأريخ أعـداء الأمّة، بل

بتأريـخ أمجادهـا الذاتيّة الّـذي يُعبِّر عـن أصالتها وعنوان شخصيّتها التأريخيّة، ما يعكس شعوراً وإحساساً في الأمّة يُترجـم من خـلال انفتاحها علـى عمليّة البنـاء الحضاريّ الإسلامـيّ وثقتها فيه، وبالتّالي تُحقّق المزيد من المكاسب في المعركة ضدّ التخلُّف.

أضف إلى هـذا أنّ عمليّة البناء الحضاريّ الإسلاميّ لن تبـدأ من الصفر؛ لأنّها ليست غريبة على الأمّة بل لها جذور تأريخيّـة، ونفسيّة، ومرتكزات فكريّة، بينمـا أيّ عمليّة بناء أخـرى تنقل مناهجها بصورة مصطنعة، أو مهذّبة من وراء البحار، لكي تُطبّـق على العالَم الإسلاميّ سوف تضطّر إلى الابتداء من الصفر والامتداد بدون جذور.

٤. امتصاص المحافظين لحركة البناء الجديد:

إنّ أيّ حركـة ـ غيـر إسلاميّـة ـ تُمارس دور التجديـد والتغييـر في العالَـم الإسلامـيّ، ستصطدم ـ حتمـاً ـ بعدد كبير مـن الأعراف، والسنن الاجتماعيّة، والتقاليد السائدة الّتـي اكتسبت على مـرِّ الزمن درجة مـن التقديس الدينـيّ،

وأصبح من المستحيــل التخلّي عنها بسهولة لدى جزء كبير من الأمّة. بل ستواجه تلك الحركة التجديديّة التغييريّة ردّة فعل ومعارضة دينيّة واجتماعيّة ترفض كلّ القيم والمفاهيم الجديدة الّتي ستأتي بها.

هذا الواقع سيضع حركة التجديد والتغيير غير الإسلاميّة بين خيارين:

ـ إمّــا أن تُحاول استئصال الجــذور النفسيّة لهذا التحفُّز الرافض والمناهض لها، باعتباره الأساس التقليديّ والدينيّ الّــذي يعكس مشاعر الحفــاظ والتمسُّك بالتقاليد والعادات السائــدة. ولكــن هذا الخيــار لا يحــلُّ المشكلة ـ واقعــاً ـ بل سيزيدها تعقيــداً؛ لأنّه ستكشف حركة التجديد عن وجهها العدائي الصريح للدِّين، وستطرح نفسها كبديل عنه، وهذا ما سيُكلِّف عمليّة البناء جهداً كبيراً في ظلّ معارضة شديدة من قِبَل الجزء الأعظم المحافظ والتقليديّ في الأمّة.

ـ وأمّــا الخيــار الثاني أن تُحاول حركــة التجديد والتغيير فصــل الدِّيــن عــن هــذه التقاليــد، والعــادات، والأعراف،

وتحديد حقيقة دوره في الحياة عبر توعية النّاس على ذلك، ولكـن ـ أيضاً ـ هـذا الخيار ليس عمليّاً وواقعيّـاً، لأنّه يعني قيام حركة التجديد والتغيير على أسس علمانيّة، سيّما في مجال فصل الدِّين عن السياسـة. وهذه أيديولوجيّة وأسس لا صلة لها بالإسلام، بل هي غير قادرة على تفسير الإسلام تفسيـراً صحيحـاً، أو حتّى إقناع الجـزء الأعظم من النّاس بوجهـة نظرها فـي تفسير الإسـلام، ما دامـت لا تملك أيّ طابع شرعيٍّ يُبـرِّر لها أن تكون في موقع التفسير للإسلام، ومفاهيمه، وأحكامه.

وعلى العكس من ذلك حركة التجديد والتغيير الّتي تقوم علـى أسس إسلاميّة ومنطلق وأهداف إسلاميّة، وذات صلة وثيقة بمصادر التشريع الإسلاميّ، وتُجسّد كلّ ذلك في دولة تأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر، فإنّ هذه الحركة قادرة علـى امتصاص واستيعاب الجزء الأعظـم من المحافظين والتقليديّين لمصلحة البنـاء والتجديد؛ لأنّها بحكم إدراكها العميـق للإسلام قادرة على تفسير الإسـلام والتمييز بينه

وبيـن السنن، والأعراف الاجتماعيّة الّتـي خلقتها العادات، والتقاليـد، ومختلـف العوامـل والمؤثّرات الأخـرى، وفصل الإسـلام عـن جميـع أوضـاع التخلّـف والعـادات والسنـن السيّئة.

مثـلاً: أوضاع التخلّف الّتي تُسيطر على المرأة المسلمة وعلـى علاقاتها بمجتمعهـا وبالرجال، بدلاً مـن محاربتها على أسـاس مفاهيم السفور ومواقف الحضارة الغربيّة من علاقات المرأة والرجل، الأمر الّذي يُصنِّف الجزء الأعظم من أفراد الأمّة في الصفّ المعارض، يجب أن تُحارب على أساس دينيّ منطلقاً مـن توعية المسلمين على التمييز بين الأعـراف والأوضاع الّتي سبّبت هـذا التخلّف للمرأة، وبين الإسـلام الّذي لا صلة له بتلك الأعراف والأوضاع السائدة.

وكذلـك الأمـر بالنسبة لمفهوم الصبـر فإنّه من منظور إسلاميّ هـو قيمة خلقيّة عظيمة، ولكنّه اتّخـذ طابعاً سلبيّاً نتيجـة لأوضـاع التخلّـف الّذي يعيشـه المسلمـون، فأصبح الصبر عبارة عن الاستكانة، وتحمّل المكاره بروح اللامبالاة،

وعدم التفاعل مع قضايا الأمّــة الكبيرة وهمومها العظيمة، ولــن تستطيع الأمّــة أن تُحقّق نهضة شاملة في حياتها ما لم تُغيّــر مفهومها عن الصبــر، وتؤمن بــأنّ الصبر هو الصبر علــى أداء الواجب، وتحمُّل المكاره في سبيل مقاومة الظلم، والطغيــان، والترفُّــع عن الهموم الصغيرة مــن أجل الهموم الكبيرة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

فمــن هذا الطريــق يُمكــن أن نُصحّــح القيــم الخلقيّة الدينيّــة، والعــادات والتقاليــد الاجتماعيّة الّتــي اكتسبت طابعــاً سلبيّــاً مــن خــلال أوضــاع التخلُّــف، ونُحوّلها من طابعهــا السلبي إلى طابعها الإيجابــيّ الإسلاميّ الصالح، لكــي تُساهم كطاقة فاعلة فــي عمليّة البنـاء وتقدُّم حضارة الإنسان المعاصر.

٥. التطلُّع إلى السماء ودوره في البناء:

يختلــف الإنسان الأوروبيّ عن الإنســان الشرقيّ اختلافاً

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

كبيراً، فالإنسان الأوروبيّ بطبيعته ينظر إلى الأرض دائماً لا إلى السماء، وحتّى المسيحيّة ـ بوصفها الدِّين الّذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين ـ لم تستطع أن تتغلّب على النزعة الأرضيّة في الإنسان الأوروبيّ، بل بدلاً عن أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إله المسيحيّة من السماء إلى الأرض ويُجسِّده في كائن أرضيّ.

وليست المحاولات العلميّة للتفتيش عن نسب الإنسان في فصائل الحيوان(١)، وتفسير إنسانيّته على أساس التكييف الموضوعيّ من الأرض الّتي يعيش فيها، أو المحاولات العلميّة لتفسير الصرح الإنسانيّ كلّه على أساس القوى المنتجة(٢) الّتي تُمثِّل الأرض وما فيها من إمكانات، ليست هذه المحاولات ـ متعدِّدة الأساليب والأساطير ـ إلا كمحاولة استنزال الإله إلى الأرض في مدلولها النفسيّ، وارتباطها

---

(١) كما فعل داروين في أسطورته حول أصل نوع الإنسان وتطوّره التدريجيّ من هيئة قرد إلى هيئة إنسان.

(٢) كما فعلت كلٌّ من النظريّتين: الرأسماليّة ـ الليبراليّة، والاشتراكيّة ـ الشيوعيّة.

الأخلاقـيّ بتلك النظرة العميقة فـي نفس الإنسان الأوروبيّ إلى الأرض.

هـذه النظـرة إلـى الأرضـ أتاحـت للإنسـان الأوروبيّ أن يُنشـئ قيمـاً للمادّة، والثـروة، والتملُّـك تنسجم مع تلك النظـرة، بل ترسّخت تلـك القيم عبر الزمـن، وتشكّلت في قوالب ومذاهـب فلسفيّـة وأخلاقيّة قائمة على مبـدأ اللذّة والمنفعـة، فاجتاحت الساحة الأوروبيّة عاكسة عمق المزاج العـام للنفس الأوروبيّة، ومناهج تفكيرهـا، وطرائق حياتها وسلوكها، الأمر الّذي حقّق نجاحاً كبيراً في تفجير الطاقات المختزنة في كلّ فرد من أفراد الأمّة الأوروبيّة، ووضع أهدافاً لعمليّـة البنـاء والتنمية تتفق مـع تلك التقييمـات الفلسفيّة الخاصّة بالمادّة، والثروة، والتملُّك. وقد تبلور ذلك ـ بالفعل ـ فـي حركة دائبة نشيطة مع مطلع العصر الأوروبيّ الحديث الّذي لا يعرف الملل أو الارتواء من المادّة وخيراتها، وتملُّك تلك الخيرات والثروات.

ولكن بنفس الدرجة الّتي استطاعت النظرة إلى الأرض لدى الإنسان الأوروبيّ أن تُفجّر طاقاته في البناء، أدّت أيضاً إلى ألوان من التنافس المحموم على الأرض وخيراتها وثرواتها، ونشأت أشكال من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان؛ لأنّ تعلّق هذا الكائن بالأرض وثرواتها جعله يُضحّي بأخيه، ويُحوّله من شريك إلى أداة.

وأمّا الشرقيّون فأخلاقيّتهم تختلف عن أخلاقيّة الإنسان الأوروبيّ نتيجة لتأريخهم الدينيّ، فإنّ الإنسان الشرقيّ الّذي ربّته رسالات السماء، وعاشت في بلاده سيّما الدّين الإسلاميّ، ينظر بطبيعته إلى السماء قبل النظر إلى الأرض، ويأخذ بعالَم الغيب قبل الأخذ بالمادّة والمحسوس.

وافتتانه العميق بعالَم الغيب قبل عالَم الشهادة هو الّذي عبّر عن نفسه على المستوى الفكريّ في حياة المسلمين، عبر توجيه الفكر في العالَم الإسلاميّ إلى المناحي العقليّة من المعرفة البشريّة دون المناحي الّتي ترتبط بالواقع المحسوس، بل هذه الغيبيّة العميقة في مزاج الإنسان

الشرقـيّ المسلم حدّت من قـوّة إغراء المادّة لـه وقابليّتها لإثارتـه، الأمر الّذي ترتّـب عليه موقف سلبـيّ تجاه المادّة بأنواعهـا، واتّخذ ذلك الموقف شـكل الزهد تارة، والقناعة أخرى، والكسل ثالثة.

ولكـن تلك المواقـف السلبيّة للفرد المسلـم تكون حينما تفصـل الأرض عـن السماء، أمّـا إذا أُلبسـت الأرض إطار السمـاء، وأُعطي العمل مع الطبيعـة صفة الواجب الشرعيّ، ومفهـوم العبادة، فسـوف تتحوّل تلـك النظـرة الغيبيّة وما يترتّـب عليها من مواقف سلبيّة لدى الفرد المسلم إلى طاقة محرِّكـة وبنّـاءة، تُساهـم بأكبر قدر ممكن فـي رفع مستوى الحياة.

وهـذا بالضّبـط ما تصنعـه الدولة الإسلاميّـة، فإنّها لا تنتزع من الإنسان نظرته العميقة إلى السماء والغيب، وإنّما تُعطـي له المعنـى الصحيح للسمـاء والغيـب، وتسبغ طابع الشرعيّة والواجب على العمل في الأرض بوصفه مظهراً من مظاهر خلافة الإنسان لله على الكون، وسيّداً للدنيا لا عبداً

لهـا. وبهذا تجعل من هـذه النظرة طاقة بنـاء، وفي الوقت ذاته تحتفـظ بها كضمان لعدم تحوّل هذه الطاقة من طاقة بناء إلى طاقة استغلال وانحراف عن خطّ الخلافة الربّانيّة الرشيدة الصالحة.

قـال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.

الخلاصة:

أوّلاً: يمتلك الإسـلام عناصر قوّة مميّزة قادرة على بناء حضارة الإنسان على مرِّ التأريخ، والتصدّي لكلِّ أشكال التخلُّف، والتبعيّة والاستغلال، والقضاء عليها.

ثانيـاً: لقد ترجم الإسـلام عناصر قوّته وقدراته الهائلة في البناء الحضاريّ الراقي من خلال محورين:

المحـور الأوّل: التركيـب العقائـديّ للدولـة الإسلاميّة القائمـة على أساس وهدف كبير، وهـو الله تعالى وتطبيق شريعتـه علـى الأرض. وهو الهـدف الوحيد الّـذي يضمن استمـرار تحـرُّك بنـاء حضـارة الإنسـان، وإبقـاء جـذوة إشعاعـه متّقدة، هذا فضـلاً عن الدور الأخلاقـيّ السامي الّـذي تُمارسه الدولة الإسلاميّة فـي تحقيق تطلُّعات وآمال أفرادهـا ومجتمعهـا، وذلك من خلال تحريـر الإنسان من قيود الدنيـا وشهواتها، وجعل الدنيـا ـ بنظر الفرد المسلم ـ دار ممـرٍّ للآخـرة لا دار مقـرٍّ وشقـاء، وتقديـم النموذج الحقيقيّ والمثل الأعلى المتمثّل في أهل البيت عليهم السلام ضمن

هذا السياق، لا النموذج المزيّف والخدّاع المتمثّل في الطواغيت والمستكبرين.

المحور الثاني: التركيب العقائديّ والنفسيّ للفرد المسلم المعاصر، القائم على أساس اختيار سليم وصحيح لإطار ومنهج قادر على تفجير الطاقات الصالحة في أفراد الأمّة، والارتقاء بهم نحو الأفضل. ولكن بشرط مراعاة مشاعر أفراد الأمّة، ونفسيّتها، وتركيبها العقائديّ، والتأريخيّ، والإدراك الواعي لكلّ مواطن الخلل، والفساد، والانحراف الّذي تغلغل في أوساط الأمّة سواء نتيجة لتكريس بعض العادات، والتقاليد، والأعراف الخاطئة، أو نتيجة الاستعمار والعبوديّة وما ترك من آثار مدمّرة للإنسان المسلم، وجعله يعيش حالة من التخلّف والجهل.

ثالثاً: من خلال تفعيل عناصر القوّة والقدرة الإسلاميّة عبر البناء العقائديّ لكلٍّ من الدولة والمواطن، يُمكن أن تنهض الأمّة الإسلاميّة مجدّداً وتُفجّر كلّ طاقاتها

وثرواتهـا الهائلة فـي سبيل التنميـة، والتقدُّم، وبناء الحضارة الإنسانيّة وتؤهّله لممارسة دور الخليفة على الأرض، وتحمُّل الأمانة الإلهيّة كما أمره الله سبحانه وتعالى وأرشدها إلى ذلك.

الفهرس